نظام المادة ونظام الروح

بقلم جورج أستور

ان تقدم العلم التطبيقي (*) ناجم عن الجهود المشتركة التي يسهم بها العلم الخالص والتكنيك . والعلم الخالص لم يفرض على نفسه – كهدف جوهري – بناء الات او الحصول على نتائج ذات استخدام عملي مباشر ، بل استهدف دوما شيئا ارفع من ذلك . فقد التمس ، كيما يرضي احد انبل اتجاهات الفكر البشري ، المعرفة المبراة من الغرض ، المعرفة بذاتها ، الا انه ساهم – بكشفه المتدرج عن قوانين الطبيعة – في زيادة قدرتنا على العمل والتأثير في العالم المادي، بحيث ان كثيرا من اشكال الالية انما تدين بوجودها لابحاث العلماء البريئة من الغرض . ومن جهة اخرى ، فان التكنيك الذي يتجه ، بدوره ، شطر الفائدة المباشرة – ورغم انه يشغل ، من وجهة النظر العقلية الصرفة ، مرتبة اقل رفعة من العلم الخالص بالتأكيد – ان التكنيك هذا ليعتبر شكلا من اشكال فاعلية فكرنا الذي يسعى باجهزة دقيقة بارعة للحصول على بعض النتائج او للتغلب على بعض الصعاب . فالالة ، باعتبارها ابنة العلم الخالص والتكنيك ، انما هي ، بذلك نفسه ، ابنة العقل . واذا كان ثمة سبب يدعونا الى الاعجاب بحضارتنا المادية الراهنة فهو بالتأكيد هذا السبب **بالذات** .

ولكن افلن ترتد الالة ، ابنة العقل – عندما غدت سيدة حضارتنا واخذت تضغط بصورة ثقيلة على وجودنا بأسره – افلن ترتد هذه الالة ضد امها وتسحقها ؟ افلن تنصرف الانسانية – وقد غرقت بوجه خاص في الشواغل المادية لوجود قاس ومعقد اكثر فأكثر – افلن تنصرف عن التأمل عن التفكير الخالص ، عن جميع الاشكال الرفيعة للفاعلية الذهنية ؟ تلك الاشكال الرفيعة التي هي لا شرف عرقنا فحسب ، بل شرط تطورنا التقدمي بالذات . تلك هي – في نظر العلامة لويس دوبرولي – المسألة الخطيرة الاولى التي يطرحها التطور الكثيف للالية او بوجه عام للحضارة الانسانية في صورتها المادية .

يجيب لويس دوبرولي على هذا السؤال بانه لا يرى نفسه شديد القلق ، فهو يعتقد بان الفكر البشري – في عصرنا كما هو الحال في كل عصر وربما اكثر من كل عصر اخر – قد استطاع ان يقيم الدليل على قوته وجرأته. ويفيد بانه عندما يتكلم على هذه الصورة انما يفكر بنوع خاص في هذا النمو المدهش الذي ادركته النظريات العلمية عامة ، والنظريات الفيزيائية خاصة ، تلك النظريات التي وسمت بميسمها الثلاثين سنة الاولى من قرننا الحالي .

فقد ابان السيد بيغي Péguy بان العالم قد تغير اكثر مما تغير طوال قرون خالية . كما اكد برغسون بان الانسانية قد قطعت في اقل من مائة سنة ، شوطا علميا وتكنيكيا لم تقطعه منذ نشأتها .

لقد جددت الفيزياء المظفرة اسسها ومبادئها واطرها الفلسفية ، وكل زخرف افكارها وصورها . فعلائق المادة بالنور ، والهندسي بالديناميكي ، ومفاهيم الزمان والمكان ، والشيء المادي ، والحتمية ، والمنطق بالذات .. كل ذلك كان في ثورة وغليان . ولقد زدنا الى حد مفرط من سيرنا اللانهايات الكبرى وبخاصة للانهايات الصغرى لدرجة ان جميع اساليب تفكيرنا واطر مقارنتنا تبدت لنا وكأنها محدودة على نحو فريد ، محدودة (الى حد كبير) بالمقياس البشري ، بالقطاع المتوسط لعملياتنا المألوفة وتجربتنا التقليدية . انها – والحق يقال – ثورة كوبرنيكية بدلت بعمق سلوك العالم والطريقة التي يتصور بها العلم بالذات . ولا بد من التنويه هنا بالمكاسب المدهشة المتحصلة في الفيزياء الحديثة ، واعني بذلك نظرية النسبية ونظرية الكوانتا .

ان الذي يميز المذاهب الجديدة الكبرى في الفيزياء المعاصرة – سواء اكانت نظرية النسبية ام نظرية الكوانتا – هو جهدها العظيم الذي تقوم به لتوسيع اطر الفكر وتحرير نفسها من المفاهيم القبلية المتقدمة على التجربة ، تلك المفاهيم التي لا تود الظواهر الطبيعية الاذعان لها .

فالنظرية النسبية وضعت من جديد موضع التساؤل المفاهيم القديمة – ولو كانت مطابقة للحدس – للمكان المطلق والطول المطلق ، فهي قد كشفت لنا بان الواقع العميق انما هو ضرب من الاتحاد الصميم للمكان والزمان ، وان الطريقة التي نقتطع بها ، في هذا الواقع العميق ، مكاننا وزماننا ليس لها سوى قيمة نسبية ، وانها تتوقف على جملة المقارنة التي نجد انفسنا مرتبطين بها .

اما نظرية الكوانتا ، وهي نظرية اجرأ ، فانها – لكي تفسر ظواهر غير قابلة التفسير في الظاهر – قد هجرت فكرة اتصال واستمرار الظواهر الفيزيائية والتمست ، بطرق جديدة على نحو غريب ، حل الغاز العالم الذري . ومهما يكن المصير الذي يخبئه المستقبل لهذه النظريات ، فنحن هنا ازاء جهود فكرية رائعة . ولم تقتصر هذه الجهود على تجديد الفيزياء ، بل اتت باغذية جديدة للتأمل الفلسفي بطرحها بعض كبار الاشكالات التقليدية ، وباعادتها النظر مثلا في مفاهيم السببية والفردية بالذات .

وهناك ايضا الحدث الجوهري في العلم الحديث، وهو تحرير الطاقة النووية ، هذا الاكتشاف الذي دشن عصرا جديدا . فنحن هنا ازاء عالم جديد وقوة للانسان لا مثيل لها ، الامر الذي يذكرنا بفاليري في كتابه فاوست : فنرى الانسان يتخطى الشيطان ، وفاوست يصرع مفيستوفليس

(*) مهداة الى صديقي النبيل (س) باعتباره شعلة متوهجة من القيم الروحية في عصرنا المادي المظلم .

في ميدانه الخاص . لقد كان بروميتيوس يخاصم زوس ، ومن الان فصاعدا يستلب فاوست من مفيستو قوته الشيطانية !

هذه الحيوية في الفكر المعاصر ، والتي لم تقتصر على الفيزياء النظرية وعلى فلسفة العلوم ، بل وجدت ايضا في كثير من الميادين الاخرى ، هذه الحيوية تسمح بالتأكيد بان الالية لم تلحق ضررا بفاعلية الانسان العقلية ، وان اي انحطاط في هذه الفاعلية لم يظهر في الوقت الحاضر . ولا يقتصر الامر على انه لم يكن للالية هنا من عواقب ضارة ، بل الامر عكس ذلك تماما ، فقد ساعدت الالية مساعدة عظيمة في التقدم العلمي . ولنذكر بهذا الصدد دور الاختراعات التي يسرت ـ منذ اختراع المطبعة ـ انتشار الفكر ، وسرعة الاتصالات ، وكثافة المبادلات الفكرية بين الافراد والشعوب . وثمة شكل دقيق من اشكال الالية تتبدى فيه الالة موضوعة في خدمة الفضول الفكري ، ونقصد بذلك التكنيك التجريبي الذي يزود العالم بالوسائل الضرورية لدراسة الطبيعة وتعيين قوانينها . فالشرط الاول المسبق لكل تقدم هام يحدث في الفلك ، والفيزياء ، والكيمياء او البيولوجيا انما هو وجود او اختراع بعض اجهزة او ادوات ، فكلما ارادت هذه العلوم التقدم ، توجب على التكنيك الادواتي هذا ان ينمو ويستدق . ان العلم النظري ـ اذا ما ترك الى نفسه ـ فانه سيتجه دواما الى النوم على مكاسبه الماضية ، بيد ان التجربة ، عندما تصبح دقيقة واضحة اكثر فأكثر ، تبين لنا على الدوام ، وفقا لشكسبير ، « بان السماء والارض تكنان من الاسرار اكثر مما يتخيله فيلسوفنا » . فالتجربة ، بتبيانها لنا التعقد اللامتناهي للواقع ، هي التي تحطم الدائرة التي يتعرض الفكر التأملي المرخي العنان لخطر الانحباس فيها . وبما ان التجربة تتوقف على كمال التكنيك التجريبي ، فالالة هي اليوم ، بمعنى ما ، احدى شرائط التقدم العقلي .

هذا في مجال الفكر الخالص ، العلمي او الفلسفي .

ولنطرح الان هذا التساؤل : اذا لم تكن الالية قد اضرت بالفكر الخالص ، بل على العكس افادته ، انما اضرت ، افلن تضر بأشكال اخرى رفيعة في نظام حياتنا الروحية الفكرية ؟ أفلن تلحق ضررا بالعواطف الجمالية ، وبالفن في صوره المتعددة المتنوعة ؟ أفلن ترتكس ، بوساطة التعديلات والتبديلات التي تطبع بها وجودنا كله ، أفلن ترتكس بصورة أسيفة ضد حياتنا الاخلاقية ؟ وهذه حقا أسئلة دقيقة .. فالبعض يستطيع الحكم فيما اذا كان الادب والشعر ، والفنون بوجه عام في دور انحطاط ، ام انها خلافا لذلك ستندفع ـ وقد انعشتها صيغ وتقنيات جديدة ـ في سبل لما تسبر اغوارها . كما يستطيع البعض ان يدلي برأي عن تطور الضمير الاخلاقي في الانسانية المعاصرة، ويقول فيما اذا كان هذا الضمير يتقدم او يتقهقر .

ونحن نلزم ، مع لويس دوبردلي ، جانب التفاؤل ، فنرى بان تطور العواطف الجمالية والعواطف الاخلاقية ، له جذوره في بعض الدوافع الكبرى للنفس الانسانية ، وهي دوافع مرتبطة بذاتها بأعمق قوى الحياة ، وأشدها خفاء . وقد تبعث هذه الدوافع الانسانية عبر العصور ، ولا يعتقد بانها ستخمد جذوتها قبل خمود جذوة الانسانية ذاتها . وثمة وجود ، الى جانب الدوافع الصالحة ، للدوافع الطالحة حقا : فعبادة الجمال يعاكسها الذوق السيء وعدم الكفاية في الجهد لتحقيق المثل الاعلى ، كما ان التوق الى الخير يصطدم بالميول الشريرة ، بالانانية والتراخي . بيد ان الامور كانت هكذا على الدوام ، ولم يمنع ذلك لا الفن ولا الادب من الازدهار ، ولا الاحساس بالواجب من ان يبدو من جديد مما لا يمكن اجتثاث جذوره من قلب الانسان . ومن البدهي ان تتعدل الشرائط المادية لحياتنا وتتعقد ، الا اننا نرى الانسانية ، عبر هذه التغيرات ، تبقى ذاتها ، كما ان ثبات اساسها الاخلاقي يبدو وكأنه يصور استدامة تطلعاتها وامانيها .

فالحضارة الحديثة اذن لاتسحق لا الفكر ، ولا الحساسية ، ولا الضمير الاخلاقي . بيد ان وجوها اخرى للمسألة هي بكل وضوح اشد ابتعاثا للقلق .

***

فهناك اولا ردود الفعل المحزنة التي ينتجها تطور الالية المفرط في سرعته ، او كثافة الانتاج العظيمة جدا ، تلك الازمات المتناوبة من الحمى والضغط التي يذعن لها الجهاز الاقتصادي .. وهنالك ايضا ، وهذا اشد هولا ، تزايد قوة التهديم التي هي النتيجة الاسيفة المحتدمة لنواحي تقدم العلم المطبق . لقد قيل : المعرفة معناها القدرة ، الا انها ـ ويالاسف ـ اذا كانت تستطيع ان تفعل الخير ، فهي تستطيع كذلك ان تفعل الشر ! ويعتقد البعض ان البشرية ستصل الى عمرها العقلي الملائم قبل ان تحصل كارثة مدمرة غير اننا نبقى بالبداهة قلقين . ولنستحضر الى فكرنا الدمار الرهيب الذي احدثته قنبلتا هيروشيما وناغازاكي . كما افاد السيد فريدريك جوليو « بأن قنبلة ذرية واحدة تلقى من طائرة واحدة تعطي نفس النتيجة التي يعطيها اثنا عشر

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات التسع الاولى من الاداب تباع كما يلي :

			ل.ل
السنة الاولى	١٩٥٣	(مجلدة)	١٥٠
السنة الثانية	١٩٥٤	(بدون تجليد)	٤٠
السنة الثالثة	١٩٥٥	« «	«
السنة الرابعة	١٩٥٦	« «	«
السنة الخامسة	١٩٥٧	« «	«
السنة السادسة	١٩٥٨	« «	«
السنة السابعة	١٩٥٩	« «	«
السنة الثامنة	١٩٦٠	« «	«
السنة التاسعة	١٩٦١	« «	«

الف قاصف عادي » . وقد جاء في تقرير الفيزيائي الشهير سميث « بأن الحضارة سوف تحتاز ، في يوم قريب ، على وسيلة انتحارها . » وأعلن العلامة اينشتاين ، في احدى المجلات الامريكية ، بانه « سيفنى ، في النزاع القادم ، ثلثا النوع البشري . » وصرح الشاعر الكبير بول فاليري قائلا: « نحن ، أبناء المدنيات الاخرى ، نعلم الان اننا فانون . » واشار السيد اندريه جورج الى ان « فناء الحضارة قد تعاظم على نحو فجائي . » ونوه السيد لويس دوبرولي بانه « لايجدي شيئا السعي لاخفاء امكانية مثل هذه الكوارث بأوهام مضللة . » وهذا هارولد اوري ، الحائز على جائزة نوبل ، يكتب مذعورا : « انا اكتب لاخيفكم . وانا بذاتي رجل خائف ، كما ان جميع العلماء الذين اعرفهم خائفون . » وهو يدعو الارض المهددة « بيت الخوف » .

وافاد السيد جان روستان : « بانه يكفي بعض علماء لتجهيز الانسانية بقوة رهيبة ، ولكن لا يكفي ، لجعلها جديرة باستعمالها ، بعض حكماء . » ثم قال : « لقد صنع العلم منا آلهة قبل ان نستحق ان نكون بشرا . »

بيد ان عالمين من اكبر علماء فرنسا ، وهما بول لانجفان وفريدريك جوليو ، أعلنا بان السعادة المنتظرة تفوق بكثير الشقاء الاني . فغرام واحد من الاورانيوم يغدو انجع من عشرة طونات من الفحم الحجري . وسنغدو أسيادا بتذويبنا الجليد القطبي ، او بجعل الصحاري خصبة ، وبأن نخلق على نحو صنعي الفصول ونحول الزراعة ، وان نتفلت من جاذبية الارض ، او ان نمنح لكل ساكينها — وهذا افضل — حظا اوفر من الكرامة الممكنة .

ليست الازمة اذن ازمة العلم ، فالعلم ، رغم جميع فضائله ، يقترح والانسانية تتصرف . وقد ميز برونشويك بين ثقافة عصر « او بالاحرى وسائل ثقافته » وبين حضارته بالذات ، أي بما يصنعه هذا العصر بوسائله .

فالخطأ هو ان نسوي بصورة مطلقة بين علم زمان وبين قيمته الحضارية ، وان نخلط بين تقدم العلم وبين تقدم الانسانية . ان تراكم المعرفة جعلنا نعتقد — مع باسكال — بأن « المحدثين » افضل بكثير من « القدماء » ، وان الانسان ، باعتباره يتعلم دوما ، قابل للكمال بصورة لا محدودة ، لان العلم مظفر بصورة لا محدودة .

فلا بد اذن من اقامة التوازن بين العلم والضمير ، بين المادة والروح . ولنتذكر بهذا الشأن كلمة باكون ورابليه القديمة الصائبة : « العلم بدون ضمير ان هو الا تهديم للنفس . » ولكن المسألة تتضخم اليوم تضخما فلكيا ، انها مسألة تهديم الضمير الانساني ومسألة الخراب الشامل . فالامر الهام اذن هو اقامة التوازن بين العلم والحكمة ، أي انه ينبغي للعلم والضمير ان يسيرا دواما جنبا الى جنب .

لقد كان الضمير الاخلاقي ، في العصر الوسيط ، متقدما بوجه عام على العلم المضطرب الغارق في سباته . ثم انقلب الامر ، واصبح العلم الحديث المظفر بصورة خارقة يتطلب دوما ضميرا ناميا جدا ، أي يتطلب تكملة روحية اخلاقية .

ولا بد هنا من الاشارة الى رأي برغسون : « لقد جاءت الالات لتغطي جسمنا المتعضي امتدادا واسعا جدا ، وقوة هائلة جدا ، غير متناسبتين مع امتداده وقوته ، حتى ان العلماء لم يكونوا بالتأكيد يتوقعون ذلك ابدا في مستوى بنية نوعنا . . ولنضف بأن الجسم المتنامي انما ينتظر تكملة نفسية ، وان الميكانيك انما يتطلب تصوفا » . (منبعا الاخلاق والدين) .

ولكن اذا كانت الاخلاق متأخرة عن العلم ، وبالتالي اذا كانت المقدرة التهديمية للعلم هي البارزة اليوم ، فهل يجوز لنا النكوص الى الوراء ، والعزوف عن العلم ؟ صحيح ان العلم « بطريق الالية » قد طبع الانسان الراهن بالطابع المادي الالي وعرضه للمصير المظلم ، فضعفت ثقة الانسان بالعلم ، الا انه لايمكن ، رغم كل ذلك ، ان تكون المسألة مسألة الرجوع الى الوراء ، بل ينبغي لنا ان نتقبل بشجاعة جميع ثرواتنا مع الاخطار التي تحملها . وسوف تقف الامة وقفة الموت اذا ماعدلت عن العلم ، كما ستقف الانسانية بكاملها وقفة الموت ايضا اذا ماتخلت في كل مكان عن العلم .

ان عصرنا الفاجع هو ، بالمقابل ، العصر الذي تتبدى فيه على نحو افضل عظمة الانسان التي تكمن في كرامته ، في حرية اختياره . وكما ينبغي لكل منا ، في قمم حياته ، ان يختار بالنسبة للقرار الصعب ، كذلك تجد الانسانية نفسها وجها لوجه امام مصيرها في المرحلة الجوهرية من مراحل تاريخها الطويل . وهي — كما قال برغسون — « لاتعلم الى حد كاف ان مستقبلها يتوقف عليها ! » فكل شيء اذن سوف يتوقف على اختيارها . هناك عبارة بليغة لنيتشه : « في الانسان ، توجد المادة ، التجزؤ ، الافراط ، الصلصال ، الوحل ، الجنون ، السديم ؟ الا انه يوجد في الانسان ايضا الخالق ، النحات ، ديمومة المطرقة ، والتأمل الالهي في اليوم السابع . »

صدر حديثا

في سلسلة المسرحيات العالمية

لِكلِّ حَقِيقَتِه

للكاتب الايطالي الشهير

لويجي بيرانديللو

ترجمة جورج طرابيشي

منشورات دار الاداب

واذا كان الجانب الفاجع للانسانية فاجعا اكثر من اي زمان غبر ، فهو لايصور ، بعد كل شيء ، سوى عظمة الانسان الذي لايقبل الانفصال عن بؤسه . فكل شيء لايزال وسيظل بين ايدينا .

لقد حطمت الانسانية قديما كثيرا من السدود ، وانتصرت على اسوأ الكوارث ، والانسان ـ شأنه شأن مازيبا ـ لايستقط على الارض الا لكي ينهض ملكا . وان ابعد تاريخ لنا ليشهد على فضيلة الضائقات الفريدة . او لم يبين لنا سان سين ، في احد كتبه ، بان الجليد الرهيب ، في نهاية عصر البليوسين وبداية عصر الكاترنير قد قسر أسلاف الانسان المباشرين على ترك الغابات وتوديع الاشجار وفي نضالهم من اجل البقاء ، وتخطيا للعائق ، ظهر العقل والذكاء ، وكان الانسان . « اكتشاف الحياة ص ١٥٣ » .

ويرى المفكر اندريه جورج باننا ، وقد خرجنا اليوم من كثير من الضائقات ووسمتنا الايام الرهيبة بميسمها ، لنشعر بالضربات اقوى واعنف ، ونستشعر بجميع التهديدات اكثر اثارة وحدة . بيد ان غمومنا وجوانب قلقنا سوف ترتد فيما بعد ، الى المقياس العادي ، الى مقياس الانسان الذي سيصبح فخورا لانه قمعها وتخطاها . ان البحارة الذين جازوا راس العواصف دعوه اخيرا راس الرجاء الصالح . وقد يأتي يوم ايضا تقطع فيه الانسانية بأسرها راس اشد العواصف هولا ، فتستطيع ان تدعوه ، بصورة مظفرة ، راس الرجاء الافضل .

ويدعونا العلامة لويس دوبردلي الى ان لانغرق في لجة التشاؤم ، فقد لاقى النوع البشري امامه كثيرا من العقبات كما تعرض لكثير من الاخطار ، منذ بداية تاريخه ، ونتيجة الجهود الكبيرة والالام العظيمة ، فقد تمكن من التغلب عليها بجملتها . وافضل دليل على ذلك هو اننا هنا في هذه المرحلة . فمن المسموح لنا ان نأمل بصورة معقولة حصول الامر نفسه في المستقبل ، وان في مستطاعنا السير حذاء الهاويات دون ان نسقط فيها .

والخلاصة ان خطر حضارة مادية مفرطة في النماء والتطور ليس هذه الحضارة بالذات ، بل هو فقدان التوازن الذي يحصل اذا لم يقابل هذا التطور المادي المفرط بالضرورة تطور مواز في الحياة الروحية . وهنا ينكشف امامنا الدور الصعب ـ لكن الرئيسي ـ الخاص بتعليم وتربية الاجيال الشابة التي ينبغي لها ان تعرف كيف تستفيد من المنافع العملية للحياة الحديثة دون ان تكف عن الاحتفاظ بالميراث الاخلاقي وتنميته ، ذلك الميراث الذي كدسه الانسان على نحو بطيء ، عبر القرون . لذلك يتوجب على هذه الاجيال الشابة ان تتعلم كثيرا كيما تستطيع الافادة من التجارب المحدثة والمعارف المجمعة ، الا انه ينبغي لها الا تكتفي بالتعلم بل يجب ان تكتسب ايضا قوة الضمير الاخلاقي وتذوق الجهد الشخصي ، وفن التفكير الصحيح والتعبير الصحيح عن فكرها ، وحب الجمال في شتى صوره . فيجب اذن على الاجيال عبادة كل ماهو رفيع في النظام الاخلاقي والعقلي والجمالي ، وهي عبادة لن تكون بدونها حضارة ـ مهما تكن كاملة في تفاصيلها المادية ـ اكثر من شكل معقد من اشكال البربرية .

دمشق — جورج أستور

دار الاتحاد للطباعة والنشر

تقدم

مصير افريقيا

دراسة وافية عن التيارات التي تتجاذب القارة السوداء

تأليف الصحفية الفرنسية ايف ديسار — نقله الى العربية غياث حجار

*

نجمة

رواية جزائرية بقلم **كاتب ياسين**

نقلتها الى العربية **ملك ابيض العيسى** — راجع الترجمة **سليمان العيسى**

*

وجها لوجه مع القومية العربية

دراسة صريحة جريئة عن قضية العرب القومية

تأليف **جاك بولان** — ترجمة **غياث حجار**

*

الشيطان والاله الطيب

اروع المسرحيات التي كتبها

جان بول سارتر

نقلها الى العربية **غياث حجار**

*

دار الاتحاد للطباعة والنشر ـ مطابع دار الصحافة
محطة الناصرة ـ بيروت

*

تطلب كتب دار الاتحاد في البحرين
من الشركة العربية للوكالات والتوزيع